

الأدب المقارن

عنوان المحاضرة: الشخصيات المعقدة في روايتي "الجريمة والعقاب" ١٨٦٦ لدوستوفسكي، و"زقاق المدق" ١٩٤٧ لنجيب محفوظ.

تعريف بالأديب فيودور دوستوفسكي (١٨٢١-١٨٨١):

قدّم الدكتور حسام الخطيب تعريفاً بالأديب الروسي "فيودور دوستوفسكي" في كتابه "الأدب الأوروبي تطوره ونشأة مذاهبه" الآتي: "وُلد فيودور دوستوفسكي سنة ١٨٢١م في موسكو حيث كان أبوه طبيباً مقيماً في مشفى كبير، وتلقّى فيودور تعليمه على يد أبيه وأمه ومعلميه الخصوصيين، ويذكر أنّه قرأ التوراة ... وفي الثالثة عشرة من عمره أرسل إلى مدرسة داخلية خاصة، وبعد ثلاث سنوات توفيت أمّه، والتحق بمدرسة المهندسين الحربيين في العاصمة بطرسبورغ، وفي سنة ١٨٤٤ اغتيل والده على يد الألقان الذين كانوا يعملون في أرضه."

الشخصيات المعقدة في رواية "الجريمة والعقاب" لدوستوفسكي:

يصعب التعامل مع الشخصية المعقدة، فهي تعتمد الصراع ممّا يشارك في ظهور العقدة، فينتج منها تأزم أحداث الرواية بشكل تدريجيّ، فالرواية في أصلها مبنية على عقدة تتشعب وتتفرّع عنها عُقد، وتتغلغل العقدة على مدار أحداثها، وتتبنّى بعض الشخصيات العقدة وبعضها الآخر يحاول التصديّ لها؛ للوصول إلى حلول ربّما تكون جوهريّة، حتى إنّهُ يمكن الأخذ بتلك الحلول في حياتنا العملية التي أخذت بالأصل من تجارب الناس.

وتتشكّل العُقدة المفاصل المحرّكة للرواية ومن دونها يمكن أن تستمر الرواية بعض الوقت، ولكنها ستفقد أهمّ عنصر بُنيت لأجله وهو عنصر التشويق، فالعُقدة في ظاهر الأمر أداة من أدوات التّوتر الفكريّ والتّشنج للمتلقي إلا أنّها بالنسبة إلى الكاتب محرّكة لسيرورة الرواية، وبهذا الشكل تبدو العُقدة كالشّرك الذي ينصبه الكاتب ويقع فيه المتلقي بملء إرادته؛ لعلّه يجد الحلّ الذي يُريح فكره ويُرضيه، ومتى ما حُلّت العُقدة آذنت الرواية بالنهاية، ويكون الحلّ متماشياً مع المدرسة الأدبيّة التي ينهج الكاتب نهجها، وقد خلق الكاتب في رواية "الجريمة والعقاب" العُقدة أي الجريمة على يد بطلها راسكولنيكوف، وجعل على عاتقه تحمّل تبعاتها والسعي في حلّها مع مشاركة بعض الشخصيّات.

وبطل رواية "الجريمة والعقاب" للكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي هو راسكولنيكوف وقد كان طالب علم، وذكر ذلك عندما قصد العجوز المرابية أليونا إيفانوفنا: "اسمي راسكولنيكوف، وأنا طالب علم." وكان الهدف من ذهابه إليها رهن ساعة عندها فقد قال: "أخرج الشاب من جيبه ساعة دقيقة قديمة من الفضة وقد نُفِشت على غلافها الكرة الأرضيّة، وتدلّت منها سلسلة من الفولاذ وقال: لقد جنّتك بشيء ترهينيه!"

وأشارت الدكتورة مكارم الغمري إلى أنّ رواية "الجريمة والعقاب" تنقسم إلى جزأين: "جزء صغير يتناول وصف تنفيذ الجريمة، وجزء أكبر يصف عقاب البطل، وهو الجزء الذي يتّسم بالتحليل النفسي العميق، وتغلب عليه السمة التراجيديّة، فالبطل نتيجة للجريمة التي قام بها موضوع أمام اتّخاذ قرار يتوقّف عليه مصيره الآتي كلّ ووجوده، وفي الأحوال جميعها يبدو هذا المصير مظلماً وتعساً."

وعلى ما يبدو كان راسكولنيكوف ميّالاً إلى العزلة والنفور من الناس غير أنّه في فترة من الفترات سعى راغباً في تعرّف عالم جديد مهما كان نوعه؛ وذلك عندما دخل الحانة أوّل مرّة: "لم يكن "راسكولنيكوف" ميّالاً إلى المجتمعات بل كان يتحاشى كلّ احتكاك مع الناس وخصوصاً في الآونة الأخيرة، غير أنّه في تلك اللحظة كان يشعر بدافع يجتذبه إلى أقرانه من الناس، وكأنّ ثورة قامت في كيانه جعلته يتنكّر لعزلته..."

وبالحديث عن الجريمة فقد نفّذها راسكولنيكوف تلك الشخصيّة المعقّدة المضطربة الذي جعل الجريمة متشعّبة، وذلك عندما ذهب إلى العجوز المرابية بحجة الرهينة، وكانت تلك الجريمة المعقّدة النقطة الأساسيّة في تأزّم مسار سرد الأحداث، وأداتها الفأس: "أخرج الفأس من مكانها ورفعها بكلتا ذراعيه من دون أن ينتبه إلى حركته، وتركها تسقط آلياً ومن دون عنف على رأس العجوز فقد كانت قواه خائرة، لكنّه سرعان ما استردّ قواه بعد الضربة الأولى... أصابتها الضربة الأولى في قمّة رأسها... ثم انهال عليها بكلّ قواه بضربة ثانية وثالثة مستهدفاً الرأس فتفجّر الدم وكأنّه سُفِح من إناء... كانت قد فارقت الحياة."

والأمر الأكثر تعقيداً أنّه ارتكب جريمة أخرى لم يكن ينوي ارتكابها وهي قتل أخت العجوز الصغرى "إليزابيت" التي دخلت الغرفة فجأة: "اندفع نحوها رافعاً فأسه فتقلّصت شفتا المرأة المسكينة تقلّصاً أليماً شأن بعض الأطفال عندما يُفاجؤون بشيء يخيفهم ويحاولون الصراخ مستجدين... وهكذا أصابتها الفأس ملء رأسها."

إنّنا نقف أمام جريمة قتل مزدوجة بعدما أجهز راسكولنيكوف على إليزابيت أخت العجوز المرابية، وكأنّ الكاتب أراد أن يُظهر الحقيقة الرمزيّة المُستترة وراء الجريمة وهي نفسيّة راسكولنيكوف الداخليّة المُتسلّطة التي تنهب في سبيل نفسها بلا رحمة والمُتمثّلة

بالعجوز المُرابية "أليونا"، ونفسيّته الخاضعة التي تقوم بأفعال خيرة في سبيل الآخرين بكلّ نكران للذات والمُتمثّلة بأخت العجوز "إليزابيت".

فزادت الجريمة الثانية الخوف في داخله: "بدأ الرعب يستحوذ نفسه أكثر فأكثر وخصوصاً بعد جريمته الثانية التي لم يكن قد مهّد لها أو أدخلها في حسابه وشعر برغبة ملحّة في مغادرة المكان، وكأنّه أدرك في تلك اللحظة دقّة موقفه وحرجه".

إنّ السياق يفرض أحياناً على الكاتب التكرار تجلّية المعنى، أو رغبة منه في التوكيد والتفصيل، أو التعظيم والتهويل وزيادة التنبيه، ويؤدّي كلّ ذلك إلى تنمية النصّ وبلورته، وقد أفاد ورود التكرار في السياق السابق في كلمة: (أكثر)، أفاد تهويل حال الرعب التي استحوذته بعدما تضاعفت جريمته وتعمّدت.

وتأكيداً لذلك القول فقد بقي راسكولنيكوف مريضاً مدّة أربعة أيّام بعد ارتكابه جريمته: "كان يخيّل إليه أحياناً أنّه أمضى أكثر من شهر في سريره، وأحياناً أخرى أنّ كلّ شيء قد تمّ في بحر يوم واحد... إنّهُ افنقد أمراً لا يجد في نفسه القدرة على استعادته، فكان يتألّم ويتعذّب ويزفر ويثور لمجرد تفكيره في العجوز ثمّ يذهل ويغيب عن الوعي..."

يبدو أنّ راسكولنيكوف في رواية "الجريمة والعقاب" اكتشف بعد ارتكابه الجريمة أنّه لا يمكن له إحلال السعادة الإنسانية على حساب سلبه حياة أناس آخرين، وبالحديث عن الأداة التي استخدمها وهي الفأس في تنفيذ جريمته فهي اسم آلة للعمل في الأرض وترمز للعطاء والخير، جعلها الكاتب في السياق بعد تنفيذ راسكولنيكوف الجريمة آلة للقتل ورمزت للشرّ، وبذلك أخرجها عن دلالتها الأصليّة في سبيل خدمة الرواية.

وهناك شخصية زامبوتوف وهو أمين السر في قسم الشرطة من الشخصيات التي أثارت قلق راسكولنيكوف وزادته تعقيداً عندما تحدّثا في الحانة عن الجريمة إذ سأل زامبوتوف راسكولنيكوف عن الأسلوب الذي كان سيتبعه لو أنّه قتل العجوز: "قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدّق في وجه زامبوتوف ثمّ سأل بوجه متجهّم: يبدو أنّك تتوق لمعرفة الأسلوب الذي كنتُ أتبعه في مثل هذه الحال فأجاب زامبوتوف بلهجة خطيرة وصوت ثابت حتّى ليخيّل للناظر إليه أنّ وجهه اتّسم كذلك بميسم الخطورة المتزايدة: إنّني أود ذلك حقاً."

وتبرز شخصية أخرى وهي شخصية بيير بيتروفيتش لوجين، وهو محامٍ حاول التّقرب من دونيا أخت راسكولنيكوف، وتقدّم لخطبتها وقد أخذ يثير الفتنة بين راسكولنيكوف وأمه وأخته إذ ادّعى بأنّ المال الذي قدّمه له قد صرفه على سونيا، وهي فتاة طيّبة أحبّها راسكولنيكوف وفي الحقيقة أعطى راسكولنيكوف المال لزوج أبي سونيا لتقوم بنفقات دفن زوجها المرحوم مارمیلادوف؛ فقد كان لوجين في حقيقته إنساناً أنانياً، مستعداً للقيام بأعمال دنيئة من أجل مصلحته .

ارتكب راسكولنيكوف الجريمة، ولكنّه لم يكثر بعدها بالمال؛ لأنّ دوافع الجريمة أساساً فكرية، وهي من وجهة نظره تحقيق العدالة الاجتماعية، فشكّت سونيا لوهة أنّه مجنون: "لكن كيف ذلك... ألم تقل إنّك..." "لِتسرق" ومع ذلك لم تأخذ شيئاً، فأجابها وهو شارد البال: لستُ أدري؟ لم أقرّر بعد أ كنتُ سأخذ ذلك المال أم لا، وفجأة عاد إليه شعوره فقال: يا للحماقة التي تلفظتُ بها! أليس كذلك؟ ومضت في خاطر سونيا فكرة سريعة: "ألا يمكن أن يكون مجنوناً؟" ولكنها أبعدت تلك الفكرة فوراً.

دخل راسكولنيكوف السجن بعد اعترافه بالجريمة، وكانت سونيا تذهب لزيارته لكنّه كان يعاملها في بادئ الأمر معاملة قاسية: "أكدت سونيا بوضوح، أنّه في بداية الأمر لم يكن عازفاً عن زيارتها فحسب، بل إنّّه كان يبدي مزاجاً سيئاً نحوها، ويقابلها بصمت عميق بل وبغلظة."

تعريف بالأديب نجيب محفوظ (١٩١١-٢٠٠٦):

ذُكر تعريف بالأديب نجيب محفوظ في "موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم": "من أشهر أدباء العرب في العصر الحديث وُلد في القاهرة، ودرس فيها دخل الجامعة في عام ١٩٣٠م، وتخرّج في قسم الفلسفة سنة ١٩٣٤م، بدأ حياته الأدبيّة بكتابة المقالات الاجتماعيّة والفلسفيّة، واتّجه إلى العناية بالتاريخ المصري القديم واستهوته الرواية والقصة، فكتب فيهما وبرع. عمل في إدارة الجامعة، وفي وزارة الثقافة ووزارة التربية حتّى تقاعد عام ١٩٧١م."

الشخصيّات المعقدة في رواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ (١٩٤٧):

رأى الدكتور عبد القادر القط أنّه يركّز نجاح أعمال الأديب نجيب محفوظ على الأجواء والشخصيّات التي تعمر بها: "كثير من روايات نجيب محفوظ - على الرغم ممّا بها من تفصيلات كثيرة قد تخرج أحياناً عن سياق الأحداث - يقوم نجاحها على تلك الأجواء والشخصيّات الخاصّة التي تزخر بها."

تظهر هنا شخصيّة المعلّم كرشة التي عاشت الحياة الشاذّة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، وكلّ ما فيها من تعقيدات أثّرت فيه لدرجة أنّه ألفها، وجعلت الناس ينظرون إليه نظرة سلبية: "من عجب أنّ المعلّم كرشة قد عاش عمره في أحضان الحياة الشاذّة،

حتى خال لطول تمرّغه في ترابها أنّها الحياة الطبيعيّة، هو تاجر مخدّرات اعتاد العمل تحت جناح الظلام، وهو طريد الحياة الطبيعيّة وفريسة الشذوذ، واستسلامه لشهواته لا حدّ له ولا ندم عليه ولا توبة تُنتظر منه، بل إنّهُ لَيُظلم الحكومة في تعقّبها لأمثاله، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهواته الأخرى مثاراً للازدراء والاحتقار.

يوجد تشابه بين شخصيّتيّ المعلّم كرشة وابنه حسين؛ فهما شرسان وهناك صعوبة في التعامل معهما: "كانت علاقته بأبيه في الأصل متوتّرة، ذلك التوتر الذي ينشأ عادة عن تصادم طبيعتين متشابهتين، فكلاهما قطّ شرس غضوب."

وهذا الصراع الكائن بين هاتين الشخصيّتين الأب والابن_ والذي تشعّب إلى صراع مع المحيط الخارجيّ_ راجعٌ إلى تدنيّ مستوى الوعي الاجتماعي والأخلاقي المرتبط بالواقع لهاتين الشخصيّتين، وهذا ما أشار إليه الدكتور كمال عبد اللطيف من خلال نظرتّه إلى الخطاب العربي المعاصر الذي اصطدم بدرجات معقّدة من الصراع: "نواجه في الخطاب العربي المعاصر أسئلة مركّبة ومرجعيّة مركّبة، كما نواجه في الواقع درجاتٍ معقّدة من الصراع بين مكوّنات الذات وفي علاقتها بالآخر أو بالآخرين وبحكم تنوّع معطيات الواقع الاجتماعي، نلاحظ مستوياتٍ متعدّدة في درجات تطوّر الوعي السياسي والاجتماعي المواكب لهذا الواقع."

والذي يدلّ على صراع حسين كرشة مع محيطه الخارجيّ كرهه الشديد أهالي الزقاق: "كان حسين كرشة الذي أغرى عباس الحلو بالخدمة في الجيش البريطاني، وما إن سافر الشاب إلى التلّ الكبير، وخلا منه الزقاق-حتى دكّانه اكترها حلاق عجوز-جنّ حسين جنوناً واجتاحته ثورة عنيفة تغور مقتاً للزقاق وأهله؛ أجل كان منذ زمن بعيد يُعلن كراهيّته للزقاق وأهله."، وقد أفاد الترادف في المفردات الواردة في المقبوس السابق:

(عنيفة- مقتاً- كراهيته) في الكشف عن مكنونات الصراع في شخصية حسين كرشة تجاه أهل الزقاق.

وأوردُ موقف حميدة من عباس الحلو: "أخذت تخرج من حيرتها رويداً رويداً، فقد وجدت في الظلمة التي كانت تتخبّط فيها بصيص نور، نور الذهب اللامع الذي يستهويها، ويلبّي نزوعها الصارخ إلى القوة والجاه، وهو بعد هذا كلّه - وقبل هذا أيضاً - الفتى الوحيد الصالح في الزقاق! أجل هذا حقّ لا ريب فيه وقد خامرها شعور بالارتياح."

ولابدّ من الإشارة في هذا السياق إلى أنّ نجيب محفوظ أطلعنا على جانب من جوانب البيئة الاجتماعية تمثّل في شخصية حميدة التي تمرّدت على بيئته الاجتماعية، وانقادت وراء أهوائها عندما غادرت الزقاق مع الشاب فرج إبراهيم وهو صاحب بيتٍ للدعارة وقلبها متشوّق للحياة الجديدة وبمجرّد خروج حميدة مع ذلك الشاب تأزّمت العقدة، وأخذ الصراع يتصاعد بشكل تدريجيّ في الرواية: "غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدّي والهيّام بالحياة وما كادت تخرج من الصنادقيّة حتّى رآته عن بُعدٍ واقفاً عند ملتقى الغوريّة بالسكّة الجديدة فلاحت في عينيها لمعة خاطفة، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب، وهو مزيج من السرور والرغبة والوحشيّة في القتال."

انتقلت حميدة لتعيش حياة جديدة لطالما رغبت بها بعيدة عن الزقاق إذ شعرت أنّها يمكن لها أن تحقّق كلّ ما تريده بسلك تلك الطريق: "لعلّ الساعة الوحيدة التي داومت عليها في حياتها الغابرة هي انطلاقها إلى الخارج في الأصل من كلّ يوم، ولكنّها الآن تطيل الوقوف أمام المرأة المصقولة، أصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الغرفة، كانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها، فبدت امرأة جديدة كأنّها وُلدت في أحضان النضارة، ونمت وترعرعت في أطراف الجاه والنعيم."

أوجه التشابه:

بالحديث عن شخصية راسكولنيكوف فإنّها تشبه في طبيعتها ومحبتها للآخرين شخصية عباس الحلو، فراسكولنيكوف كان محباً لأمّه وأخته وصديقه رازميخين وسونيا، وكذلك كان عباس محباً لأهله وجيرانه وحميدة، وهذا الأمر أكّده الدكتور عبد المحسن طه بدر إذ قال: "القارئ لأعمال دوستويفسكي مثل "الجريمة والعقاب" أو "الأخوة كارامازوف" يشعر بأنّها لم تفقد ملامحها كشخصيات روسيّة، ولكنّها في الوقت نفسه نماذج إنسانيّة تتعدّى حدود بيئتها، لتصبح عامّة مشتركة تلتقي بالإنسانيّة كلّها في مختلف البيئات والعصور."

وهناك تشابه بين شخصيّة سونيا التي باعت جسدها وحميدة التي سارت على المسار نفسه.

كلتا الروائيتين عامرة بالصراع بين الشخصيّات، فبالحديث عن رواية "الجريمة والعقاب" كان الصراع أحياناً خارجياً أي مع الآخر ومن أشكاله الصراع بين راسكولنيكوف ودونيا أخته بسبب اقتراح زواجها من لوجين؛ لأنّ في ذلك الزواج تضحية من قبلها وهو يحبّ أخته ولا يريد أن تتعذّب بزواجها من لوجين، وكذلك الصراع الذي دار وقت الجريمة وكان راسكولنيكوف الطرف الأقوى إذ إنّهُ قتل العجوز المرابية أليونا بدافع السرقة، أمّا أختها إليزابيت فقد قادتها المصادفة إلى حتفها على يد راسكولنيكوف، وأيضاً الصراع الذي دار بين سفيريغاييلوف ودونيا الذي رغب بها وهي بالمقابل رفضته.

أمّا الصراع الداخلي وهو صراع الشخصيّة مع نفسها فقد تمثّل براسكولنيكوف وذلك قبل ارتكاب الجريمة، فقد تردّد كثيراً بين الإقدام على ارتكاب الجريمة والإحجام

عنها، وشعر بأنّ ما سيقوم به ما هو إلا ضرب من الجنون، وبعد الجريمة توصّل العلماء النفسانيّون إلى أنّ راسكولنيكوف وصل إلى مرحلة الجنون المؤقت.

هذا فيما يخصّ الصراع في رواية "الجريمة والعقاب" وبالحديث عن رواية "زقاق المدق" فهناك صراع خارجي بين عباس الحلو وسليم علوان حول الزواج بحميدة، وصراع حميدة مع أهل الحي، أمّا الصراع الداخلي فهو صراع حميدة مع ماضيها وحاضرها، وقد انتصر حاضرها المتمثّل بالانحراف الفعلي على ماضيها، وصراع آخر وهو صراع عباس الحلو مع نفسه؛ وطرفا الصراع: حبّه حميدة ورغبته في الانتقام منها وهذا الصراع أودى بحياته عندما أراد أن ينفذ الجريمة فعلياً.

وتجدر الإشارة إلى وجود ثنائيات ضديّة في الروائيتين المتمثّلة بالشخصيّات الطيّبة والشرّيرة، ومن الشخصيّات الطيّبة في رواية "الجريمة والعقاب" شخصيّة سونيا التي باعت جسدها لإطعام أخوتها، وكذلك شخصيّة دونيا التي أرادت الزواج من لوجين لمساعدة أخيها راسكولنيكوف؛ إذ إنّّه كان يدرس الحقوق وهو بحاجة لمحام يساعده، وكذلك بحاجة للنقود ولوجين هو محام من ناحية ولديه النقود من ناحية أخرى لكنه وصولي سيئ فلقد أثبتت تصرفاته الدنيئة ذلك. وهناك شخصيّات جمعت بين الخير والشرّ ومنها شخصيّة راسكولنيكوف الذي كان لا يتأخّر عن مساعدة الآخرين وبالمقابل ارتكب جريمة قتل بحقّ امرأتين العجوز المرابية الشريرة وأختها إليزابيت الطيّبة.

وحفلت رواية "زقاق المدق" أيضاً بالشخصيّات الطيّبة والشرّيرة ومنها شخصيّة عباس الحلو الذي كان يسعى إلى فعل الخير وبالمقابل شخصيّة حسين كرشة الإنسان الشرير الذي يحمل طبعاً سيئاً في تعامله مع الآخرين، وهناك أيضاً شخصيّة حميدة التي أساءت لنفسها وللآخرين ومنهم عباس الحلو الذي أحبّها بصدق

أوجه الاختلاف:

بالحديث عن الجريمة في الروايتين فقد وقعت في رواية "الجريمة والعقاب" في بدايات الرواية، أمّا الجريمة في رواية "زقاق المدق" فقد وقعت في نهاية الرواية، وبطل رواية "الجريمة والعقاب" راسكولنيكوف كان هو القاتل.

أمّا بطل رواية "زقاق المدق" عباس الحلو فقد كان القتيل، وكان راسكولنيكوف طالب علم مثقفاً، أمّا عباس الحلو فقد كان حلاقاً، نظر راسكولنيكوف إلى ارتكاب الجريمة نظرة فلسفية فقد ذكر في مقاله أنّ المنشئين والمشرّعين لخير الإنسانية -ومنهم سولون ونابليون- كانوا قتلة واضطروا لبلوغ غاياتهم إلى هدر الدم، وهو شعر في قرارة نفسه بأنه يحقّ له هدر دم العجوز؛ لأنّها مرابية وتمثل المجتمع الرأسمالي، أمّا عباس الحلو فقد كانت جريمته التي أراد القيام بها بحق حميدة -ولم تتمّ -بدافع شخصي وهو العلاقة التي كانت تربطه بتلك الفتاة في الزقاق من دون أية خلفية فلسفية.

طرح دوستوفسكي بواقعية جريمة قتل العجوز المرابية منذ بداية الرواية تقريباً، وتمثّل نقد دوستوفسكي من خلال بطله راسكولنيكوف الذي مثّل الطبقة الفقيرة المعذمة التي يحقّ لها أن تحصل على أموال الطبقة الغنية من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن تمّ ذلك بطريقة غير شرعية وهو القتل وأراد دوستوفسكي أن يُظهر قوة بطله الذي اعترف بجريمته. أمّا الجريمة عند نجيب محفوظ فقد تمتّ في نهاية الرواية تقريباً وبطلها كان ضعيفاً، فقد انهزم بقتله من قبل الجنود الإنكليز؛ إذ أثّرت تلك المرحلة من حياة مصر على رواية نجيب محفوظ، فكانت النهاية كلاسيكية مأساوية بموت البطل.

والقاتل في رواية "الجريمة والعقاب" فرد هو راسكولنيكوف، أمّا القاتل في رواية "زقاق المدق" فقد كان مجموعة من الجنود الإنكليز، ولا بدّ في هذا السياق من إجراء مقارنة بين شخصيّة سونيا حبيبة راسكولنيكوف وحميدة حبيبة عباس الحلو، فبالحديث عن سونيا هي فتاة باعت جسدها في بداية الرواية وبمحض إرادتها من أجل إطعام أخوتها، ولكنّ روحها بقيت نقيّة صافيّة، وهي بذلك شخصيّة متناقضة لدرجة أنّها غير مفهومة ولاسيّما في بلاد الشرق، وإن كانت مثل هذه الشخصيّة مفهومة إلى حدّ ما في أوروبا، وفي المدرسة الرومانسيّة والتي طرحت مفهوم المومس الفاضلة التي أجبرها المجتمع على بيع جسدها، ووقفت إلى جانب راسكولنيكوف بعد أن اعترف لها بجريمتها وشجّعته على الاعتراف بها، وبقيت تزوره وهو في السجن، وقد كسبت احترام السجناء بما تمتلك من طيبة، وكانت صلة الوصل بينهم وعائلاتهم وحبيباتهم؛ إذ كانت تنقل الرسائل لكلا الطرفين، وقد انتقلت من الرذيلة التي أجبرها عليها العوز الشديد إلى الفضيلة بحبّها راسكولنيكوف.

أمّا حميدة فهي فتاة لم تكن قد غاصت في الرذيلة منذ بداية الرواية، ولكنّه كان لديها استعداد دائم لفعل أيّ شيء لأجل شهوتها الكبيرة للمال، فقد كانت أولاً مع عباس الحلو، وعندما طلبها سليم علوان قبلت به؛ لأنّه كان غنياً ولكن ما لبث أن مات فرجعت مدّة إلى عباس الحلو، ثمّ دخل رجل جديد حياتها وهو فرج إبراهيم الذي أغواها، وما أسهل إغواءها! ومن ثمّ دفعها إلى الرذيلة وهو العمل بجانة، فقد نظرت إلى الحياة من خلال الذهب والسطوة والعراك لا من خلال الحبّ، ولم تتأثر حميدة بانضمامها إلى سلك الدعارة؛ لأنّها لم تكن الفتاة الطيّبة أو الفاضلة التي تبكي على شرفها المثلوم.